مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية | المجلد07/ العـــدد:03(2023)، ص 50-59

تمثلات الهوية بين الأنا والآخر وفق جدلية المركز والهامش

Representations of identity between the ego and the other according to the dialectic of the center and the margin

لويزة جبابلية*
جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي-تبسة (الجزائر)
Louiza.djebablia@univ-tebessa.dz

تاريخ الاستلام: 30/01/2023 تاريخ القبول:26/02/2023

الملخص:

تتناول هذه الورقة البحثية جدلية الأنا والاخر ،من خلال تمثلات الصورولوجيا،التي تعتمد أساسا على كيفية تشكل صورة الأنا المرصودة في ذهن وآداب الآخر.

وعلم دراسة الصورة من أهم الموضوعات التي يقاربها المنجز النقدي عموما والروائي، خصوصا منذ ظهوره مع منتصف القرن التاسع عشر، فالآداب والأفكار والفلسفات تعكس الصورة التي يرانا من خلالها الآخر" المختلف عنا،الغربي الأوروبي"، ونقصد بالآخر "الأنا الغيري"الذي ليس" نحن ،"إنها تحيلنا إلى الآخر الذي يواجه الأنا المختلف عنه حضاريا ودينيا ولغويا ،وهذا ما يجعلها عرضة لثنائية ضدية ، سلبية أو ايجابية.

لقد تجلى هذا المفهوم وتمثل أكثر في سياقات الأدب المقارن خاصة، والآداب بصفة عامة ،وفق إطار هوياتي وحضاري،إلا أن السؤال المركزي الأكثر إلحاحا هو:كيف تتشكل صورة ما بشكل معين في ذهن الآخر؟

تعددت المعطيات التي تحيلنا إلى ذلك الموقف: ،الحضارية والسياسية والدينية والاجتماعية،التي تبلور من خلالها الصورة،لكن منطلقها الأساس ،والأكثر تأثيرا ،هو تلك الهيمنة التي فرضها الفكر الحداثي والمابعد حداثي في خطاباته المركزية الأوروبية ،إذيعتبر نفسه المركز المتعالي المؤثر.

هل المقولات النقدية والأدبية الحداثية عصرية أم عنصرية في حقيقتها حين يتم تغييب الهامش فيها ؟

لقد تؤكد فعلا السيرورة التاريخية أن العلاقات _الصراعات_ بين المركز والهامش ،يكون دوما ضحيتها الطرف الثاني و تصدر على أنها نكسة بشرية عامة؟

هل على الآداب الإنسانية والعالمية والعالمية، ان تعيد ترتيب أفكارها في تعاملها مع الأداب الأخرى-آداب الهامش- والاهتمام بالآخر كند حضاري وأدبي ،وتخرج من شرنقة الفكر الاستعلائي الاستعماري والكولونيالي التي تجاوزها الزمن ؟

كلمات مفتاحية: الصورولوجيا، الأنا والآخر، الاستعلاء، المركزية الأوروبية.

*لويزة جبابلية

Abstract :

This research papertreats the dialectic between the ego and the other through the imagology's representations which dependmainly on the way that the ego isbuilt in the mind(intellect) of the other and hisliteratures. And the imagologyis consideredsinceits appearance(emergence) in the mid-nineteenth century one of the most important subjects (topics) that the critical (novels) achievement' sapproaches deals with. The image that the other(western-european) sees us throughithadreflected to us by the ideas, literatures, philosophies and wemean by the other " the other's ego " which (who) is not us (separated in the identity and physically). This brings us to the " other's ego " who face the ego who is different to him(it) civilizationally , religiously and linguistically which makeit subject to dualism (anti) " dicothomy" positive/negative. This concept has appeared and represented us the context of the literatures in general and the comparative literature in particular with inidentical and civilization alframe work. However the most pressing and central question is : How and why this image has been built that way in the other's mind. There are many features tha trefer us to that position (civilizational , political, religious and social) through which the image was developed (built) and perhapsits basic and mostinfluential principleis the supremacy " dominance " imposed by the modernist and postmodernistthought . As itconsidersits self the transcendent and influential center throughcritical and literal quotes which seems modernist and contemporaneous in their apparent but in fact are racists in theirs realit s where the marginis completely absent . The historical process has proven that the margin is always the victim of the relations/conflicts between it and the center but it's presented all the time as a human setback.

Key words: imagology, ego and the other, arrogance, Eurocentric.

● مقدمة:

من أهم المواضيع التي تناولتها السياقات الأدبية والنقدية المعاصرة " الصورولوجيا"أو "علم الصورة"،يتم بواسطتها معرفة، كيفية تشكل صورة الآخر المرصود من خلال منظور الذات أو الأنا الآخر، من خلال الخطابات المختلفة، إن الصورة التي اخترعها خطاب الحداثة ولدت لدى الكاتب الشرقي عامة والعربي خاصة إحساسا فاجعا باليتم، وكثيرا ما حالت دون تمثل الصراع الذي يجري بين أنماط الخطاب الأدبي المختلفة، فثة استبعاد للعديد من النصوص من دائرة الخطاب الجمالي، الأمر الذي جعل الكثير من الكتابات تتقهقر وتتراجع بفعل هذا التهميش، هذا الإحساس الفاجع المتولد عن الصورة التي سوق لها، خطاب الحداثة للآخر هو الذي منح النصوص –نصوص الهامش– نوعا من الهشاشة والارتباك، وجعله يتورط في تكريس المقولات الغربية حول شروعه في التشكل، لقد وقع فريسة لأطروحات أشد الخطابات الاستشراقية عنصرية وبغضا لكل ما يأتي من الشرق، فتبناها كلها أو جزءا منها، والإحساس الفاجع ذاته هو الذي جعل هذا الخطاب يوهم في الظاهر، بأنه يتغاير مع الشرق، من جهة المتخيل الذاتي الذي صدر منه، ويتخذ منه موقفا فيه الكثير من التوجس والدونية والاستعلاء، فكيف ينظر الآخر الغربي إلى الشرقي؟ وهل تلاشت فعلا فكرة الهوية والمركز والهامش ؟ أم أن جدل الأنا والآخر يبقى قائما إلى ما لا نهاية؟

1. صورة الآخر في مخيال المستشرقين

دراسة المستشرقين جهود مهمة لا يمكن نكرانها، منحتهم مساحة حرية للتعبير عن أفكارهم اتجاه هذه المجتمعات، لكنه أعطى بالمقابل للمثقفين حق التأكد من صدق هذه الكتابات، انطلاقا من أن فهم الذات هو أكثر وأصدق أنواع الفهم، وأن صورة شعب ما في مخيال أمة أخرى، لن تكون صورة حقيقة دوما، فقد تتسبب الكثير من السياقات في تشويه تلك الصورة، من خلال ما تبثه السينما مثلا، أو شبكات التواصل الاجتماعي، بالإضافة إلى ما يمكن أن تثيره مشكلة أخرى وهي عقدة تفوق الأخر التي يعيش بها الشرقي، مقابل الإستعلاء والتقدم الذي يعيشه الغرب.

"الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبدا "يبدو أن هذه المقولة التي أطلقها الشاعر الإنجليزي "روديارد كبلنغ" في نهاية القرن 19 تحمل الكثير من معاني الحقيقة التي لا تقبل التغيير، وأنها تجسد واقع العلاقات بين الشرق والغرب، ليس في العلاقات والتقاليد والموروثات الروحية والثقافية فحسب، وإنما تجسد حالة السياسة المتعارضة أيضا، فقد كان الشرق القديم مختلفا عن الغرب القديم، ولا يزال الاختلاف قائما حتى الآن، وربما زاد في العصر الحديث اتساعا نتيجة الغزوات الاستعمارية الغربية، وقد لا يختلف الحال كثيرا في المستقبل انطلاقا من التجارب التاريخية من ناحية، ومن اختلاف التطلعات السياسية والاجتماعية من ناحية ثانية، وإذا ما حدثت هدنة ما بين الشرق والغرب، فإنها عادة ما تكون مؤقتة وتعود الأمور إلى سالف عهدها. حدث ذلك في الماضي البعيد والقريب وحدث في الوقت الراهن، والشواهد في كل الأحوال تؤكد حقيقة أن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا".[1]

صاحب "قولة الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا "أبدا هو أحد الذين أسسوا للفكر الامبراطوري، عاش في الهند فترة طويلة إبان الاستعمار الانجليزي، وقد كان بالنسبة إليه مجرد حافز خيالي يستمد من أساطيره السحر والغموض، وهي الصفة أو الثيمة التي سادت كل كتابات الفرنسيين سواء كانوا مستشرقين أو مجرد مستلهمين، قبل أن تعوض بفكرة الإرهاب.

---

[1]– عبد العزيز المقالح، الشرق شرق، والغرب غرب لن يلتقيا، دار الخليج، مركز التفكير للدراسات، مارس 2014.

التجارب الإنسانية أثبتت أن الصراع يظل قائما بسبب الدين والثقافة أو السياسة، ولطالما كان الغرب في موقف قوة في القرون الماضية، مع الهيمنة الاستعمارية ما جعله يتمادى في غروره على أساس أنه من يملك زمام الأمور دائما، وهو يدرك جيدا أن الحضارة عبارة عن هرم ساهمت الإنسانية كلها في صنع ترسباته، لأن الفكر المعاصر أصبح لا يحكم بالانتصار للغرب ضد الشرق ولا لطرف دون آخر، فالصراع دوما قد يتيح العكس أي يتحول المهزوم إلى منتصر والمنتصر إلى مهزوم، ولعل التسمية في حد ذاتها فيها الكثير من الجدل لأنها عبارة عن مسميات لا تشي بصفة جوهرية معينة، لكن تبقى مجرد مفاهيم نظرية لا ترقى لمستوى التطبيق، ذلك أن أطياف الماضي وأعباءه تبقى دائما حاضرة وماثلة في الأذهان، صراعات الاستعمار والعنف السياسي والثقافي الاجتماعي الذي تمارسه الإمبراطوريات في مستعمراتها، ولعل التصالح الذي نشهده من حين لآخر ما هو إلا مساحة سراب يقع فيه الطرفان لمدة زمنية محددة ولكنها لا تستمر طويلا لتبرز إلى الوجود ثنائية :

- غرب يتهم الشرق بالتطرف والعنف.
- شرق يتهم الغرب بالعنف والمؤامرات على أرضه.

ويؤول هذا إلى فكرتين:

- مركز يرى نفسه عقلانيا ومنتجا للعلم والثقافة.
- هامش عاطفي لا يستطيع إنتاج حضارة ولا مسايره التطور.

فالعلاقة بين الشرق والغرب لا يمكن أن تكون علاقة ثابتة ومستقرة، فبعض الأفكار تبقى مجرد مثاليات ومقولات أدبيه وفلسفيه، لا ترقى أبدا إلى واقع التطبيق ومستوى التحقق، فكثيرة هي الرؤى التي حاول أصحابها التأسيس لها في الواقع دون جدوى، فمثلا من الموضوعات التي حاولت إلغاء المركزية الغربية وبناء جسور التواصل مع الآخر ما جاء به غوتة، حين تنبأ بعهد جديد تنزاح فيه مكانة الآداب القومية لصالح أدب أكثر شأنا هو الأدب العالمي حيث يقول: "لكن إذا لم نر نحن الألمان بأبصارنا إلى ما وراء محيطنا الحالي فإننا سنقع بسهوله في الزهو المتعجرف، أحب أيضا أن أستخبر عن الأمم الأجنبية وأنصح كل شخص أن يفعل ذلك من جهته، إن كلمة أدب قومي لا تعني شيئا لنا اليوم، إننا نسير نحو عصر الأدب العالمي وعلى كل شخص أن يسهم في تسريع قدوم هذا العصر، ولكن مع تقدير كل ما يأتينا من الخارج يجب علينا أن نضع أنفسنا في مقطورته وأن لا نأخذه نموذجا"[1] لقد لاقت هذه الفكرة معارضه في وقتها واتهمت بأنها مثاليه وغير واقعية.

إن الصورة التي رسمها الغرب عن الشرق في خطاباته الإبداعية والنقدية يظل فرضيات منمطة ثابتة لكنها قاصرة عن تغيير تلك النظرة التسلطية مهما حاولت أن تتظاهر بغير ذلك، لقد كانت تلك الرؤى التي حملها الرحالة والجنود الذين زاروا أو انتقلوا إلى الشرق، مجرد نسخة ذهنية لحالة مختلفة يتمكن الغربي من خلالها إقامة سياحية لمجرد التغيير، لقد ظل هذا الشرق في مخيلة الغربي ملازما لجغرافيا السحر، ولطالما ظل مجهولا مهيبا مروعا.

---

[1]. Edward w.Said , orientalism : western conceptions of the orient , G.Brittain penguin 1978 p60.

لذلك يلجأ هؤلاء دوما لمحاولة اكتشافه والانبهار بموجوداته، يحاولون بكل الطرق الواقعية والتخيلية من خلال الصور والخطابات التي ينتجونها هذا عن لشرق .لكن هذه المتخيلة لا تكون دائما واقعية وحقيقية، لذلك فإننا نكاد نجزم أن صورة الشرق في ذهن الآخر الغربي لن تتغير قريبا، رغم بعض الطفرات من الهنا والهناك، وهي مواقف لا تعبر عن الواقع الغربي الحقيقي العام، يرسم ت.س.إليوت صورة معينة في مخيلته عن الشرق "إن إمضاء سنتين كاملتين في دراسة السنسكريتية على يد "شارلز لنمان "وسنة في دراسة ميتافيزيقيات "باتا نجالي" تحت إشراف "جيمس وود "هو الذي أدخلني حالة من الاشراقات الصوفية، فأيقنت أن قسطا وفيرا من المجهود الذي بذل في فهم مباحث الفلاسفة الهنود ودقائقها جعل أغلب كبار الفلاسفة الأوروبيين يبدون مثل صبيان المدارس ... وعندما رأيت أن تأثير الفكر البراهميني والبوذي في أوروبا، مثلما يتجلى عند "شوبنهاور" " وهارتمان" و"دوسين "قد داخله سوء فهم رومانسي، وصلت إلى نتيجة مفادها :أن ما أمني به نفسي من نفاذ إلى دواخل ذلك الفكر لن يتسنى لي إلا متى تمكنت من نسيان طريقتي في التفكير وطريقتي في الإحساس كأمريكي أو كأوروبي وهذا ما لم أكن أرتضيه لنفسي لأسباب عملية وعاطفية" إليوت هنا يقر في نهاية كلامه أن الحياة التي يحياها الشرق لا تليق به كغربي وأوروبي، وهذه الصورة التي يرسمها في ذهنه في حقيقة الأمر صورة مخترعة وصلته من خلال النصوص، فالشرق بالنسبة له ولغيره من الغربيين، ما هو إلا شرق يتم الحج إليه من أجل السمو العقلي والروحي، للتطهر من المادية والخواء الغربيين، حيث ينشد هناك بلسمه الروحي الذي يمكن أن ينقذه من التيه، هذه المغارة الروحية التي يلجأ إليها هؤلاء عند الحاجة، هي نفسها التي تتعايش في صميم الخطاب الغربي مع صورة متناقضة تماما، وهي صورة الشرق الملعون والمأهول بالشرور والويلات التي تهدد البشرية، حيث يتحول الشرق فجأة إلى بؤرة الظلام التي يحملها الغرب داخله ويهفو إلى إقصائها وإن بلعنها وإحكام قبضته عليها.[1]

كان الغرب وما زال ينتج صورة للشرق تجعل هذا الأخير يحاول الانعتاق منها لينقص من التمركز حوله وحول العالم، لكنها تكون دوما محاولة فاشلة، رغم ذلك، فهو يحاول على الأقل التقليل من تعميق وتغويل هذه الفكرة في الواقع لأنه من الصعب الانعتاق من هيمنة مركزية الثقافة الغربية، ذلك أن الآخر مافتئ يلون الصورة التي في ذهنه كما يريد ويشاء.

إن الصورة النمطية التي ابتغاها الغربي للشرق ليست مبنية على معرفة ودراية، بل كانت تلبية لحاجات موجودة في الغرب نفسه، لذلك اضطلع الخيال في تأسيسها بدور فاعل، واضطلعت الرغبات والأهواء بدور الفضاء الذي في رحابته تمت عملية إبداع تلك الصورة، بالإضافة إلى الدلالات التي شحنت بها، باعتبارها صورة متخيلة حشدا من التغيرات تتم في ضوء حاجات الغرب وتناقضاته الداخلية.

2. الأنا والآخر وتمثلات الصورة

إن تقديم صورة الآخر المخالف للأنا، تأتي ضمن رؤى مختلفة ومتنوعة، بعضها إيجابي وبعضها سلبي، وهذا الأخير ناتج أساسا عن علاقات تاريخيه أو سياسية، كالاستعمار والاحتكاك بالآخر، ليظهر للوجود ما يسمى تمثيل الآخر في الرواية والأدب، "لأن تمثيل الآخر هو شكل من أشكال التمثيل العام بوصفه آلية من آليات الهيمنة والإخضاع، و جزء مندمغ في مؤسسات الانضباط وأجهزة المراقبة والمعاينة غير أن تمثيل الآخر مهمة شاقة ومعقده"[2] فهذا الفعل ليس متاحا لكل الثقافات وغالبا ما تكون دوافعها وأهدافها غير بريئة نظرا للمنطلقات التي تنطلق منها وتمثيل الآخر ليس بالضرورة نتيجة حتمية لاجتماع الغلبة السياسية والقوة المعرفية في ثقافة من

---

[1]- أسماء العريف، صورة الآخر... العربي ناظرا ومنظورا. Unesco-group.owno.com 2021/06/01 الساعة 06.

[2]- نادر كاظم، تمثيلات الآخر (صورة السود في المتخيل العربي الوسيط) ط1 المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، 2004، ص40.

الثقافات غير أن أغلب الثقافات إنما تلجأ إلى تمثيل الآخرين لتؤكد وتثبت أنها صاحبة القوه القادرة على الهيمنة على هؤلاء الآخرين[1] ولعل ما يعنينا نحن هو ذلك التمثيل الذي يدخل ضمن إطار الأدب والسرد خاصة.

الفكر الأوروبي قائم في أغلبه على إلغاء الآخر الذي يراه دونه، فهو السيد والآخر العبد وبدا واضحا أكثر هذا الأمر في الرواية العربية .الرواية جنس أدبي حديث، جاء مع جملة من الظواهر الثقافية الحديثة حال الترجمة والصحافة، والتعرف على الثقافة الأوروبية...، "ومهما تكن الأسباب التي أسهمت في ولادة الرواية فإن الأساسي منها ماثل في عنصرين اثنين: التعرف على الآخر الأوروبي الذي أعطى المقارنة بين الأنا والآخر المتقدم حيزا واسعا، والصحافة الناشئة التي توجهت إلى القارئ بأفكار جديدة، معتبرة الرواية وسيلة تعليم وتهذيب، [2] فالآخر هو الغير أو المقابل الذي يواجه الأنا، من المفروض إنسانيا أن تقوم هذه العلاقة على مبدأ الصداقة والمحبة والتعايش والأخوة، ولكنها في الواقع تقوم على الصراع والجدال والتغريب والإقصاء والتهميش، دون التأكد من المعطيات والحيثيات التي كونت صورة الأنا عند ذلك الآخر.

تكوين صورة عن الآخر تتطلب الإلمام الحقيقي، من خلال خطوات منهجية كدراسة الأفكار الشائعة والساذجة والواعية حوله، وسبر منظوراتها ومنظوماتها الذهنية والوجدانية والإيديولوجية والعقائدية، واستكناه أغوارها العميقة تفكيكا وتركيبا، وفهما وتفسيرا حتى تكون الصورة المكونة صوره موضوعية أو قريبة من الموضوعية.

"إن صورة الأنا في منظور الآخر من أهم المواضيع التي تناولتها الرواية العربية منذ ظهورها في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ومن ثم فقد كانت تعكس لنا هذه الرواية الحضارية علاقة الشرق بالغرب أو علاقة الأنا بالآخر.[3]

العلاقة بين الأنا والآخر تقف بين الإمكانية والاستحالة، فقد تكون هناك حقيقة بينهما أو قد تستحيل، لعدم توافر الشروط الكافية لقيام تلك العلاقة، ذلك أن الحديث عن الآخر يستوجب اكتشاف الذات أولا، لمعرفة أين تقف هذه الذات مع الآخر أدبيا وحضاريا، إنها المكون الأساسي في حركة الفكر والثقافة، وهي الأصل، والآخر مجرد ظل لهذه الذات، وهو فرع عنها و المنجز لكل تصوراتها، إنها أداة توصيف ثنائية الأشياء وعلاقة التضاد القائمة، لذلك كان وسيظل الصراع قائما بينهما، فكما يجب الاهتمام بالذات ومراعاتها، عليها في ذات الوقت أن تجد هامشا للتعامل مع الآخر، تحت ما يسمى بفكرة الغيرية، لذلك لا ينبغي أن يبقى الأنا متعاليا، ويرسم في فكره صورة عن الآخر وفق ما يراه هو، لأن العلاقات الإنسانية بطبيعتها قائمة على أساس التغاير لا التمازج، ولا تقف دائما على المصالح الذاتية والاعتبارات الخاصة، يعبر غوتة عن ذلك حين يقول "أنا أحب اللغة الألمانية ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن أحب الفرنسية ولكني أفهم حقيقة أن الفرنسي يحب الفرنسية ويعيشها ولا يمكن أن يحب الألمانية كما يحب لغته القومية."

وبقدر ما يكون الصراع حادا بين الأنا والآخر، على مستوى الفعل فإن ذلك ينعكس على الأدب والخطابات الثقافية والفكرية، لذلك على الآخر أن يمتلك نوعا من الليونة، ويحاور الآخر لإلغاء الحواجز بينهما، وتستند على نظرة إيجابية قائمة على التسامح والحوار

---

[1]- المرجع نفسه، ص41.

[2]- فيصل دارج (الرواية العربية) مجلة المستقبل العربي، العدد 379، بيروت، لبنان، سبتمبر 2010 ص2013.

[3]- جميل حمداوي ، الأدب المقارن وفق نظرية الأنساق المتعددة، ط1، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني المغرب، 2020، ص190.

الحضاري والسلم، والتعايش فيما بينهما، بما في ذلك الانفتاح والاستفادة من خبرته وعلومه وحضارته، كما يجب على الآخر أن لا ينظر نظرة دونية لمن يخالفه حضاريا أو دينيا أو اجتماعيا ويبدو في صورة المضطهد والقامع والمستغل.

3. الهامش والمركز/جدل لاينتهي

تبنى العلاقات الأدبية بين البشر، على التبادل والاتصال الثقافي في سلم ومحبة، دون الاهتمام بمن هو المؤثر والمتأثر، ودون تمييز عرقي أو ديني ولا يجوز تغليب ثقافة على أخرى أو أدب على آخر أو منظومة من القيم على منظومة أخرى، ولعل من أكثر الذين انتقدوا المنطق المركزي في علاقة العرب بالشرق "ليفي ستراوس" فهو يرى أن "المركزية الأوروبية""europeocentrisme" هي نرجسية وكوجيطو "Cogito" ممزق يعاني التنافر بين الذات والفعل والغاية وهو ينظر إلى الآخر، لا على أنه مختلف عن الذات بل على أنه أدنى منها ومتأخر عنها وشعور المتأخر الأدنى هو السعي إلى اللحاق بالعالم الغربي[1]

فالدراسات لا تنجز بخلفية القوة والضعف، والغالب والمغلوب، والتابع والمتبوع، بل تقوم على مبدأ الندية والتكافؤ الذي تنتفي فيه المكابرة، فنبغي أن ننظر الى التأثر على أنه قوة في استيعاب الجديد وتلقيه وقوة أيضا في التعامل والتفاعل مع الثقافات الأخرى.

فكل أم تركز من خلال مفاهيم التأثير والتأثر على الجوانب التي تخدم الانفتاح الذي يتناسب مع متطلبات أدبه القومي، ويحافظ على خصوصيته الثقافية، وصولا لنوع من التوازن بين المحلية والعالمية.

إن الجدال أو التجاهل أو التعصب الأعمى يجعل العلاقات البشرية عامة والأدبية خاصة تدخل ضمن إطار العنصرية لأنها تنشر بعد ذلك فكرة عدم التكافؤ والمساواة بين الثقافات البشرية ويبدو المشكل حينئذ كأنه حرب غير معلنة بآثار أخلاقية وأنواع من السلوك المادي والمحتقر لثقافة الغير وهنا يصبح السؤال المحرج عن العلاقة بين الاختلاف الثقافي وتعدد الأجناس البشرية والسلالات سؤالا ملحا.[2]

فليس من صالح الدراسات المعاصرة، خاصة الدراسات الثقافية أن تتقوقع داخل ثقافة ورؤية واحدة بل أن تفتح جسور التعامل بين الآداب والثقافات

وفي هذه الإشكالية يطرح ليفي ستراوس فكرته "أننا نحن الأوروبيين قد تعلمنا منذ الصغر أن نكون متمركزين على ذواتنا وفردانيين نخشى دنس الأشياء الأجنبية وهو مذهب تعبر عنه بالقاعدة التي تقول الجحيم هو الآخرون على فكرة معاكسة فترى أن الجحيم هو نحن"[3] فهو يستنكر العنصرية بأنواعها ويرفضها بفكرة أن ثقافة تفوق على ثقافة أخرى كما ذكرنا في سياقات سابقة، فهذا التفوق لم يكن اجتهادا شخصيا ولا عبقرية عرق، إنما هي أنساق وظروف ساهمت فيها الكثير من المعطيات، فالدول التي بقيت في الهامش الأدبي والفكري والسياسي والاقتصادي حتى، خضعت للاستعمار سنوات طويلة مما تسبب في تقهقرها وتراجعها، على كثير من السياقات والمستويات .

---

[1]- فريد بولعيز، الهوية والسياسة (مقاربة أنثربولوجية) www.univ-skikda.dz/index php/fr/revue/11-6 ص 96.

[2]- عبد الرزاق الداوي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1992، ص96.

[3]- أدموند ليتش، كلود ليفي ستراوس، ترجمة ثائر ديب، ط2، دار الغرقدن سورية، دمشق 2010ن ص57.

إن المرجعية التي تأسس عليها الفكر الغربي أن الآخر مجرد "اختراع تريده ذات ما ومن ثمة، هي تستعمله لـ تعريف نفسها بوصفها ما ليس هي، فينحط لحظة إذ من كائن فعلي إلى صورة لا تملك أي دور وجودي، بل دور ا آداتيا"[1]

فالصورة التي يحملها المركز عن الهامش دوما أنه آلية من آليات الاستيلاء والسيطرة والعنف ومعظم النظريات الأدبية والنقدية هي بالنهاية تمثلات لتلك السيطرة بطريقة أو بأخرى، بل إن المنجز الأدبي لا يعدو أن يكون تمظهرا للفكر الاستعماري الامبريالي، يعرف "جورج لوكاتش" الرواية على أنها نوع أدبي نموذجي للمجتمع البرجوازي، وهو الفن الذي استطاع تصوير تلك المجتمعات.

لكن هل البرجوازية أو التطور فعلا هما سبب التقدم الثقافي والأدبي؟ ينفي ليفي ستراوس أي علاقة بين تقدم الثقافات وازدهارها، وبين ما يزعم أنه عرقي بامتياز، مؤكدا على أن الثقافات البشرية لا تتفاضل وانما تتعادل وتتأثر ببعضها البعض "إن أشكال الثقافة التي يتبناها البشر هنا وهناك، وتلك أساليب حياتهم التي سادت في الماضي أو تلك التي تسود الآن، تحدد اتجاه وإيقاع تطورهم البيولوجي أكثر مما يتحدد بهذا الأخير"[2]

حين نتحدث عن المركز هنا فإننا نبتعد عن المركز السياسي والاقتصادي، نركز فقط على المركز في الدراسات الأدبية رغم أن هذا الأخير مرتبط ارتباطا شديدا بما سبقه، إن المركزية في الأدب شكلت موضوعا مهما لدى الباحثين وقد حاولوا مقاربتها وتعريفها بما يتلاءم وتوجهاتهم وايديولوجياتهم من بينها "الأدب الذي يخدم الطبقة العليا في المجتمع لذلك فهو دائما محتفى به ومحاط بالاهتمام والحظوة، لأنه النموذج المكتمل الذي يحتذى به لكونه بلغ الذروة من كمال التعبير، ولكن لكونه موافقا للسلطة ومخططاتها، وهو بمثابة وسيلة إشهار ودعاية لها لأنه يشيد بانجازاتها ولو كانت فاشلة فهو يحظى بالرعاية السامية من قبلها، فتقام له المهرجانات والأماسي ويدرج في المناهج التربوية وإجمالا هو الأدب الرسمي المتداول"[3]

هذا الذي يحدث في مجتمع واحد ينطبق تماما على ما يحدث في المجتمع الإنساني العام، فهكذا تماما تبقى الآداب الغربية دوما في المركز بما يتوافر لها من الدعاية والإشهار والتوزيع.

لقد عايشت الإنسانية في مرحلة ما، مركزية الأدب الفرنسي، وبقية الآداب الأوروبية في الهامش، حيث استحوذت بثقافتها على السياقات الأدبية، لكن مع التطور الحاصل في الآداب العالمية، تحولت المركزية للآداب الغربية والأوروبية، وبقيت الآداب الشرقية والإفريقية والأمريكولاتينية في الهامش لسنوات طويلة ومازال البعض منها هناك.

ذلك أن أدب الهامش ينتج بعيدا عن" الدوائر الرسمية وعادة ما يتم تجاهل هذه الآداب لأنها بعيدة عن مركز السلطة وهو كل أدب ينتج خارج المؤسسة سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو أكاديمية.[4] بالاضافة للوسائل المادية والمطبعية وقنوات الإشهار المتوفرة لتلك الآداب المركزية والتي تفتقر إليها آداب الهامش، لكن السلطة هنا ليست بالضرورة السلطة السياسية، بالرغم مما يختزن في الثقافة من

---

[1]- عمر بوجيلدة، فكر الهجنة والوعي بالآخر (السرديات العنصرية والمثقف المقاوم)، ضمن كتاب: دوارد سعيد: الهجنة السرد، الفضاء الامبراطوري، دار ابن النديم للنشر والتوزيع الجزائر، دار وافد الثقافية ناشرون، بيروت 2013، ص65.

[2]- عبد الرزاق الداوي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، ص97.

[3]- روبيرت إسكاربيه، سوسيولوجية العرب، عويسات للنضر والطباعة، بيروت، لبنان، ط3، 1999، ص59.

[4]- محمدد عاطف غيث قاموس علم الاجتماع، ط1 المعرفة الجامعية، ص52.

سياسة وما يختزن في السياسة من ثقافة، يشير إلى ذلك جابر عصفور بقوله "ليست سلطة الدولة، ولكنها سلطة الكتابة الكلاسيكية والرومانسية التقليدية، فكل كتابة تخرج عن النسق المألوف تعتبر كتابة هامشية"[1].

وكل كتابة لا تتماشى مع المنطق العام وتسير في ركبه تعتبر خارج دائرة المركز، لأن هذه القوى تعتبر ضعيفة ولا شأن لها في بناء النظام العام، وليس عليها إلا الاجتهاد في الطاعة والخضوع، لأن العالم ينقسم إلى مركز تمثله القوة العظمى صاحبة التأثير والإشعاع وإنتاج المعرفة، وهامش يدور في فلكه بإرادته أو لا إرادته، تمثله دول العالم الثالث والشرق بصفة عامة.

● خاتمة:

إن الهامش لا يستطيع الاستقلال عن المركز، ولا في مقدور "المركز" الاستغناء عن الهامش، فكلاهما يكمل الآخر، إلا أن تبعية الهامش للمركز هي البارزة أكثر، والهامش لا يستفيد عادة من النظم والقوانين، وخاصة فيما يتعلق بوسائل الإعلام التي تساهم في الحراك الثقافي، لأنها في الغالب تخص أو تتركز في المدن الكبرى والعواصم، فثقافتنا تعاني من غطرسة "المركز" وتفضيله لنفسه ورموزه وتوابعه على حساب الهامش الأوسع، [2] رغم الجدل القائم الذي لا ينتهي في الأدب وغيره نخلص إلى أن "المركز والهامش" متتابعان ومتلازمان، ولو بدا الأمر كخلفية للصراع، ولولا وجود المركز لما ظهرت هناك هوامش، كما أن المركز عامل محفز في كثير من الأحيان، لأنه يخلق في "الهوامش" أحلاما من أجل الرقي والتطلع إلى الأكثر والأفضل وبذلك تخلق تلك الجدلية والحركية فينتعش الإبداع والأدب عبر المنافسة ويمكن للمركز والهامش تبادل الأدوار بالغلبة والقوة، لأن المركز يستوجب الهمينة والقوة والسيطرة.

---

[1]- حسن البحراوي، أدب محمد شكري من الهامشية إلى المركز، مجلة علامات، مكناس المغرب، عدد 18 سنة 2002، ص9.

[2]- ينظر علي حسين عبيد، منهج تركيز المركز وتهميش الهامش http://annaba.org/nbanews 2011/05/29.